مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 07/ العدد: 02 مارس (2021) - ص 25- 38

تيمة الوطن في الشّعر الملحون المعاصر المستغانمي: حـــاج بينـــين أنموذجا

the nation in the malhoun contemporary Mostaganem :Hadj bainin model

حمودي محمد
khamisti1972@gmail.com
جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم/ الجزائر

تاريخ الاستلام: 2020/06/29 تاريخ القبول: 2020/08/07 تاريخ النشر: 2021/03/15

ملخص البحث

يعدّ حاج بينين من شعراء الملحون المعاصرين في مستغانم، وممن استأثر الوطن بأشعارهم، فحضوره لافت في الكثير من قصائده، فأحيانا نلفيه يرد بشكل مباشر صراحا، وأحيانا أخرى بشكل رمزي علاماتي. وفي ظل هذا الاستخدام ثمة ثنائيات ينوجد فيها الوطن: الوطن في تعالقه مع الطبيعة، والوطن في الذاكرة التاريخية، ولعلّه يقترن ههنا بالثورة التحريرية الكبرى، التي تجاوزت الآفاق المحلية إلى العالمية، بأمجادها التليدة، وأبطالها الأشاوس، وتضحياتها الجسام، ومبادئها المستمدة من الدين الإسلامي الحنيف.

الكلمات المفتاحية: تيمة -الوطن - الشعر - الملحون - المعاصر -المستغانمي -بينين

ABSTRACT:

Hadj bainin is considered one of the contemporary poets is Mostaganem, and he who the nation has captimed their poems. His presence is remarkable in many of his poems; sometimes we find heir responds is a direct, honest way, and at other times is a symbolic way. In this case. There are dualities where the nation is its relationship with nature, and the nation is its historical memory.

Keywords: nation, malhoun, contemporary, Mostaganem Hadj bainin, model.

المقطوع به أن كلّ بلاد من هذه المعمورة تحوي تراثا شعبيا يشمل أشعارها وأهازيجها ومعتقداتها وعاداتها الاجتماعية وحكاياتها الشعبية والخرافية وأعاجيبها التي تعكس جوانب حياتها، وحكمها وأمثالها التي تلخص تجارب أفرادها، وبصفة عامة كل ما ينضح من وعيها الجمعي الذي يحدد طبيعة وجودها. والشعر الملحون ضرب من هذا التراث يمثل صوت الشعب والناطق باسمه، ينقل آهاته وأوجاعه وأنّاته، ويصوّر أفراحه واحتفالاته وطقوسه. وشاعر الملحون هو لسان حال قومه، وترجمان وجودهم، يبرز عاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم التي ينزعون إليها، يذود عنهم ويشايع أفكارهم، يخلّد مآثرهم ويشيد ببطولاتهم، والمناحي التي ينحونها. ومدينة مستغانم واحدة من المدن العربية التي تزخر بتراثها الشعري الملحون، وبشعرائها الفحول الذين قالوا فأبدعوا، وصوّروا فأجادوا، بلغة بسيطة معبرة، وألفاظ مؤثرة في الحس والعقل، يتلقاها الفؤاد ولا يتّأباها، يستسيغها الذوق ولا يمجّها، وعبارات تستقبلها الجماهير مباشرة بغير تعقيد ولا غموض.

وقد ارتبط شعرهم بالقضية الوطنية، وبالجزائر ترابا مقدسا، وتاريخا مأسطرا رددته القرون، وأسماء خلّدها التاريخ علما وأدبا وأخلاقا وقيما، وقلدتها البشرية نياشين الاعتراف والتقدير. كما تشبّبوا وتنسّبوا، وبكوا واستبكوا، وتعرضوا لتمظهرات الحياة الاجتماعية، من فقر وغبن وجهل وظلم ومحسوبية وغياب للعدل وسائر الموبقات المنافية لقيم ديننا الحنيف والمروءة والنخوة العربية. وكذلك وصفوا الطبيعة ومظاهرها الفاتنة، وقرضوا شعر الحكمة والتوسل، وأجادوا في المدحيات النبوية، وفي مقدمتهم شيخ الشعراء الفقيه والمجاهد والمتصوف الزاهد سيدي لخضر بن خلوف الذي كرّس شعره في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم حتّى لقب بسلطان المديح النبوي في هذا الفن. وإلى جانب هذه القامة الشعرية الفذة، شعراء اغترفوا من معين شعره وساروا على نهجه، الشاعر المتصوف عبد القادر بن طبجي، ومحمد الشارف بن تكوك، والشاعرة السبساجية بنت الشيخ محمد العربي بن زهرة خيرة، وغانمي العالية المدعوة بنت بلالة زوجة ولد قادة بن عيسى، والشيخ الحاج بن دنيا، والحاج دحمان بوطرفة، والجيلالي بن صبان، ومحمد ولد العربي الملقب "بالماماشي"، والحاج محمد الحبيب حشلاف، وقيوس الجيلالي المعروف في الوسط الشعبي "بالجيلالي عين تادلس"، وزحاف بن ذهيبة المدعو الطوهاري، وبن عبد القادر تواتي، وعرابي عبد القادر، وبشير تهامي، وخالد ياسين شهلال، وعبد الرحمن صلاّي، وحولي أحمد، وحاج بينين... هذا على سبيل التمثيل، إذ ثمّة شعراء أُخّر أَخَابِرُ تفخر بهم مدينة مستغانم. ولعلّ الشاعر بن عبد القادر تواتي قد رسم بكثير من الحميمية والاعتزاز والتعالي صورة مستغانم في عليائها المبهر، حيث تسكن قلب وروح وجسد كل ثاوٍ بها، وتشكّل وحدها وطنا في أبهى صوره، مَعلَمُها ثوريتها وعراقتها وشهرة رجالاتها، علماء وشعراء وفنانين[1]:

عز وطاني ظاهرة مستغانم مشهورة من قبيل ظمنوها سادات

وقوله[2]:

انقدم ليكم مستغا ولايتنا فيها شعراء وليها فنـــانين

العلما وأهل الزوي والحفنة خالف عن أسلاف من عدة سنين

ارزقهم ربي كبيوت الرمانة من كل كوان عامرة بثمار بنين

على أنّنا اجتبينا من هؤلاء الشعراء، حاج بينين بوصفه من شعراء الملحون الشباب المعاصرين الذين تفتقت قريحتهم الشعرية منذ لحظة الوعي الأولى، ورزقوا نبوءة الشعر المنبثقة من شغاف القلب، وتملّكهم مارد الكلمة العذبة، فظل ينظم ويصقل ويثقّف رمح شعره حتى استوى، والشعر في جوهره(محاولة عسيرة لترويض اللغة).[3] وفي العقد الثلاثين انبلج صبح قصيده، وتكشفت رؤياه، والشعر رؤيا إبداعية عن(العالم المكشوف في حضوره الأول بأكثر عمق).[4] ولِلَّهِ دَرُّه القائل[5]:

مَانِيْ شَاعرْ مَا سَمعُونِي لَقْطَابْ غِيرْ اللّغة دَرْتهَا غَايَةْ حُبّي

هَذِي وَهْبَةْ جَاتْنِي مَنْ دُون سبَابْ نَحَمْدَكْ يَا خَالْقِي سِيدِيْ رَبِيْ

والقائل[6]:

نختاصرْ لحْبَابنا من غير عْتَـابْ ونشكر ربي كي عْطاني ذَلْوهبة

مَانِيْ شَاعرْ ما قريت على كُتّابْ غير السبحة مطاوعة حبة حبــة

والقائل أيضا[7]:

شعري هاتفني، ليلة البـارح وسوس ليا وقال، آش أنت شـاعر

رُدْ عليّ وقول، كان أنت قارح كان أنت فارس، بالكلمة شاهر

والقائل أيضا[8]:

شكري للمولى عاطيني وهبات سري فالملحُون عاشقو بالجهدة

على سبيل التعريف:

الشاعر هو حاج بن بودية بن أحمد بينين ولد في العشرين من شهر سبتمبر العام ألف وتسع مائة وخمس وسبعين (1975) بسيدي بلعطار التي كانت تابعة آنذاك لبلدية حجاج بولاية مستغانم. تلقى مبادئ تعليمه بها، ثم انتقل إلى بلدية عين تادلس حيث درس بمتوسطة أحمد حمايدية، وثانوية محمد شمومة والتي بها نال شهادة البكالوريا عام 1994. أتمّ دراساته بالمعهد التكنولوجي للتربية بولاية سعيدة ثم بسيدي بلعباس. التحق بسلك التعليم عام 1997، ولا زال يمارسه إلى يوم الناس هذا. نشأ في عائلة تتميز بالبساطة والتواضع والكرم والجود. وهو ينحدر من قبيلة مجاهر العدنانية، وهي قبيلة قديمة وعريقة ذكرها ابن خلدون وأرخ لها الفرنسيون، حينما استولوا على مستغانم،

وتعود أصولها إلى العرب الهلاليين. وقد مدح بني مجاهر عديد الشعراء، في الفصيح والملحون، لاتسامهم بالشهامة والمروءة والإقدام، إذ تصدوا للمحتلين الغاصبين، فقاوموا الغزو الإسباني لمدينة مزغران عام 1558، واستبسلوا في دحر الاستعمار الفرنسي الغاشم منذ الاحتلال وحتى النصر والاستقلال.

شارك في المهرجانات المحلية: عين تادلس، سيدي لخضر بن خلوف، والعديد من المهرجانات الوطنية: سور الغزلان بالبويرة، لحداب بالجلفة، أدرار، البيض... كما كان له حضور في الأسابيع الثقافية ممثلا لولايته مستغانم في ولايات: المسيلة، جيجل، أدرار، تندوف. استضيف في حصص إذاعية وتلفزيونية كثيرة.

وللشاعر ما يربو عن العشرين قصيدة شعرية، نشرها في مواقع إلكترونية ومنتديات، وأسهم بها في مهرجانات وطنية متعددة. بيد أنه لم يكتب لها حتى الآن أن تجتمع في ديوان واحد يستحيل روضا مَريعًا لمحبي الكلمة الشعرية الحبلى بفيوضات المعنى، ومرتعا خصبا للباحثين والأكاديميين من أهل التخصص. وبالإضافة إلى نظم الشعر الملحون، له محاولات في الكتابة النثرية، نشر بعضها في الجرائد الوطنية، كالجمهورية والنصر، كما نشر بعضها الآخر في مجلة أصوات الشمال الإلكترونية.

لطالما تغنى شعراء الملحون بوطنهم الجزائر، فوصفوا أراضيه وجباله ووهاده وهضابه ووديانه، وتفننوا في تصوير بحاره وصحاريه. فخلّدوه في قصائد مطوّلات، في الحرب والسلم، في الداخل وفي الخارج، ونقلوا مشاعرهم الجياشة نحوه في عزّ المحن والأزمات، وبثوا شكوى الغربة الفظيعة، ومكابدة الشوق والحنين لرؤيته، والتمتّع بما حباه الله من نِعَمٍ ولآلئ طبيعية ساحرة. والأمر طبيعي ذلك أن الإنسان جُبل على ألفة موطنه الأول الذي ولد فيه وشب وترعرع، وعلى ارتباطه به وبمنازله وأهله برباط الحب المقدس).[9]

وإذا تأملنا شعر حاج بينين، فإنّنا نلفي حضور الوطن فيه كان مكثفا، حيث خصّص له قصائد مستقلة تميزت بالطول، والتنوع في الأساليب والصور الشعرية. وفي هذا إماءة إلى أن الوطن منغرس في نفسه، لائط بقلبه، ساكن في وجدانه، مشتاق إليه وهو مقيم فيه، وكيف لا يشتاق إلى رملة كان جنين رُكامها ورضيع غَمامها؟ على حدّ وصف أحد الأعراب. ولعلّ من أروع القصائد التي احتفت بالوطن، قصيدة "عشق بلادي" التي اشتملت على أربعة وثلاثين بيتا، وقصيدة "جزاير" التي بلغت سبعا وعِشرينَ بيتا، وقصيدة "جزائر حرفي" التي نَيَّفَت على الثلاثين بيتا، وقصيدة "لزرق ولد الحمام"، ذات البنية التقليدية التي قامت على الثنائية الشكلية بين هدة وفراش. وثمة قصائد أخرى كان فيها الوطن معادلا موضوعيا للحب والحنين والألفة والشجاعة والإقدام. بمعنى أن الوطن تجسّد حضوره فيها بشكل جزئي، ويتلمسه المتلقي في ثنايا النص الشعري. فضلا عن قصائد في الحكمة ذكر فيها الوطن تلميحا وإشارة.

١- الوطن/ التاريخ:

استفتح الشاعر قصيدته "عشق بلادي"-وعلى غرار شعراء الملحون-بالبسملة والصلاة والسلام على خير البشرية محمد صلى الله عليه وسلم، والإقرار بجلالة خالق الكون، المعبود الدائم في ملكه، خالق الإنس والجن، الكبير المتعال. ثم دلف إلى تصوير عظمة بلاده، ومدى تأثيرها عليه إلى درجة الفناء. ولعل الشاعر يصدر عن ثقافة إسلامية نابعة من شريعته السمحاء، إذ تشير عبارات "من وحي القلم" و"بالقلم نشكيك" إلى قداسة القلم الذي أقسم به الله عز وجل في سورة "القلم".

يذكّر الشاعر بوجود وطنه الضارب في عمق التاريخ، بل في ما قبل التاريخ، وكيف كان مذ ذاك الزمان، جنة غناء فوق الأرض. حتى أضحى مطمعا للمستعمرين على اختلاف أجناسهم، ولكن ما استطاب لهم بقاء إذ نكصوا على أعقابهم، فعادوا بعون الرحمن خائبين ترهقهم ذلة. يقول الشاعر:

يشهد لك تاريخ، ثابت ومرسـم والتـاريخ أنت، أول وثـاني
وما قبل التاريخ، حتى هو يعلـم ويعلم بسـرار، جنّة وطـاني
كذا مستعمار، ارجع منهـزم بعون الإلـه فـراج أمحاني

ليس الوطن وجودا ماديا، ولا أحياز مدنية يهندسها المعمار، وتؤطره الجغرافيا وتُرسّمه التخوم، بل هوية شعب وتاريخه عبر العصور، يعرف برجالاته وأبطاله الأشاوس بما يكنون له من عواطف وأحاسيس جياشة في قلوبهم، فيبذلون النفس والنفيس من أجل حريته واستقراره. وكذلك كان ديدن الشاعر حاج بينين إذ لم يكتب عن الوطن، كمكان جغرافي له أبعاده الهندسية والطبوغرافية، وميزاته المادية البيئية، ولكنه كتب عنه بوصفه قيمة تحمل الكثير من الدلالات الحضارية والروحية والثقافية والدينية. لقد تغنى به في أشعاره باعتباره وطن الألفة والانتماء الذي يمثل حالة الارتباط المشيمي برحم الأرض- الأم، ويرتبط بهناءة الطفولة وصبابات الصِّبا.[10] وبقيم نضالية مغروسة في النفوس، لائطة بالقلوب.[11] وهذه القيم النضالية جسّدها فرسان الأمة وقوادها وشيوخها، الأمير عبد القادر والشيخ الحداد، والشيخ محمد المقراني، وغيرهم من أبطال المقاومة الشعبية الجزائرية في ساحة الوغى، ممّن هبّوا هبّة رجل واحد لكسر شوكة الاحتلال الفرنسي الظالم، وثاروا للمجد بكل بسالة وإقدام. وهؤلاء في منظور الشاعر هم رموز الوطن وبُناتُه، معتذرا عن ذكر الكلّ، مؤكدا بأنهم سيظلون أسيادا يخلّدهم التاريخ وتذكرهم الأجيال، جيلا بعد جيل.

أولادك أبطال، ما خافوا ظالـم وثاروا للمجـد، ذوك الشجعاني
نذكر الأمير، بجـاهدوا قـاوم والشيخ الحـداد، مع المقـراني
ومنسميش الكل، يعجـز القلـم كلهم سيادي، وسياد قراني

ويؤكد الشاعر أن مقاومة العدو الفرنسي الغاشم استمرت وتعاظمت، إذ لم يتوان الأحفاد عن حمل راية النضال، واستلام شعلة الثورة التي ذكت جذوتها في غرة نوفمبر والتي غدت مثالا تقتدي به شعوب العالم الرازحة تحت نير الاستعباد، فكانوا خير خلف لخير سلف. والجاني حسب الشاعر معلوم الجنس، معروف الاسم، لا مراء فيه. فهو الفرنسي حبيب الفناء عدو الحياة، خرج مهزوما مذلولا، ومذمومًا مدحورًا، من أرض الوطن الغالي. يقول الشاعر:

خلاو لحفاد، عاهد يتسلـــم لجيل الثـورة، شعلوا نيراني

ثورة نوفمبر، عِبرة للعالـــم وعز المظلوم، في قهر الجاني

والجاني قصدي، واضح من الاسم أنهزم وأنـذل، وصار يعاني

كثيرا ما التفت الشعراء الجزائريون إلى جبال الأوراس، لاستنطاقها والتماس الشهادة منها على عظمة ثورة نوفمبر وبسالة ثوارها. فلا غرو أن تذكرها قراطيس المؤرخين، وتعظّمها قصائد الشعراء، فمنها(تفجر بركان الثورة وزحفت الجموع الثائرة لتدك معاقل الاستعمار الفرنسي وأعوانه، وتكتب صفحة جديدة مشرقة ناصعة لمستقبل زاهر وغد أفضل).[12]

ولعلّ أن يكون حاج بينين من شعراء الملحون الجزائريين المعاصرين ممن اتخذ من الأوراس الشامخ شاهدا على صنائع الرصاص ودوّي المدافع بين جنباته. هو الأوراس(كعبة الثوار الميامين على امتداد الأزمنة واختلاف الأمكنة، مرادف الوطن الصامد المكافح، ومعادله الفنّي الذي حوّله من مجرّد حصْن جَبلي منيع إلى فضاء جماليٍّ أسطوري ممتع).[13](وقد دعا الشاعر العدو الفرنسي الخذول إلى تَسْآله (أي الأوراس)عن الثورة الأسطورة، الثورة الفريدة التي دوّخت العالم وأبهرته. ولعل هذا الإبهار لثورة عارمة جارفة أعجز الشاعر عن الخطاب والوصف. والحق أن الشاعر لم يجعل الأوراس وحده محل مساءلة، ولكن كل جبال الجزائر التي وطأتها أقدام أبنائها الأحرار، من الهقار السامق إلى الأطلس الأشم إلى الونشريس الأغر إلى جبال الظهرة العاتية... وكل شبر كان حِضنَ أهِصَاء الثورة المباركة. ولم تطَلْ الشهادة الجبال فقط، بل أنطق حب الوطن، الأشجار والأحجار ورمال الصحراء وعيون المياه والشعاب والكهوف، فعبّرت عن صمود وإباء جند الله في الجزائر المحروسة، وكانت لها المزيّة في تحصين حماة الوطن الغالي بعيدا عن بطش الاستدمار الهمجي، وقد قيل: بحب الأوطان عمرت البلدان. وليست الجمادات وحدها من كانت شاهدا على معجزة ثورة نوفمبر فحسب، وإنما جميع من عاش المحن وذاق الويلات وتجرع الألم، وتحمّل العري المادي والمعنوي، وعانى من قرّ سنون الضّيم وطغيان فرنسا العجوز الذي لا يندمل كَلْمُه إلى الأبد.

سأل الأوراس، ينطق يتكلـم ويعبر بكلام، يعجز لســاني[14]

وكل جبـال، وطأتهم قــدم وكل شبـر، احتضن إخــواني

تنطق الشجرة والحجرة والصم ورمال الصحرى، بأجمل معـاني
وتنطق عيون ما عادت تــزم وشعاب وكيفان، ضمت فرساني
ويشهد جميع، من عـاش الألـم وتعرى في سنين، ظلم الطغياني
ودفن الشهيد، دعا وترحــم وبكى بدموع، تحرق جفــاني
وعزك يا شهيد، ما نقدر نكتم وعـزك سـاكن، داخل وجداني
ويعزك ذا لجيل، والجيل القادم وعـزك يبقى، في كل زمــاني

ذلك، وإنّا نلفي الشاعر يشيد بموقف الذين دفنوا شهيد الحرية بعد تضمخت دماؤه الطاهرة الزكية بتراب أرضه التي لم يرد لها أن تستباح، ودعوا له بالرحمة والمغفرة ونول علياء الفردوس، وبكوه بِدَمْعٍ سَخِينٍ يلهب الأجفان. ولعظمة مكانة الشهيد بوصفه تاج الوطن وريحانه أقسم الشاعر له بعزّه ورفعته باستحالة كتمان ما في عريكته من أحاسيس التبجيل والتقدير، وهو اعتراف صُرَاح بالإخلاص والمحبة. فذكراه خالدة في نفوس الأجيال، حيّة في عقولهم، يتوارثها جيل عن جيل، وأعظم من ذلك هو حيّ عند الله عزّ وجلّ:﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ .[15]

على أنّ الذي يُتْرَب عليه الشاعر، مغالاته في تعظيم الشهيد إلى حدّ القداسة، إذ لا يجوز القَسم إلاّ بالله الواحد الصمد، فكيف يقسم بعزّ الشهيد، حتى وإن كان ما يختلج في خَلَده فاق كل الحدود والتصورات، فأربأ به أن لا يقع في فتنة القول، فتزل قدمه الشعرية إلى هوة سحيقة ما لا قرار. أم هي طريقة لقول الأشياء كما هي، على حدّ تعبير جون مولينو في لحظة لاوعي الكتابة.

وممّا هو قمين بالنظر، ربط الشاعر الشهيد بالوطن، لأنه من أبرّ أبنائه وهب نفسه له، وعرف بأن حب الوطن من الإيمان، وأنّ الاستشهاد في سبيله من واجب الفرد وأكبر ولاء له بعد الولاء للدين، بطبيعة الحال، وفق ما تحدّه الضوابط الشرعية، ثم إنّ الشهادة (رمز للبطولة الحقة والتفاني المطلق في سبيل الوصول إلى إرضاء الله).[16]

ونعزّك يَا وْطَنْ، ونْعَزّْ العِلْـمْ وحُـبْ الأوَطَانْ مِنْ الإِيمَـانْ

وممّا يلحظ على الشاعر تكريره للفظة "عَزّكْ" حوالي خمس مرات، في القصيدة مدار الدراسة "عشق بلادي". وجاء توظيفها بالاسم ثلاث مرات، بينما وردت فعلا في مرتين. ويوحي تَردَاد اللفظة فيما يبدو إلى ما يكنّه الشاعر من عشق للأرض يجري مجرى الدّم في العروق، وتتَيُّم بالوطن، وإخلاص للتربة المعبقة بشذا دماء الشهداء. ومن الآيات على ما نقول، نظم الشاعر لأكثر من قصيدة حول الوطن والأرض والجزائر، بل إنه استخدم الكلمة في نص شعري مستقل هو "عزّ مجاهر".

واللافت للنظر أن الشاعر خلع ألفاظا دالة على وطنه في بعض متونه الشعرية، فقد نجد لفظة "دزاير" ولفظة "جزاير"، وكذا لفظة "بلادي". كما هو الشأن في قصيدة"عشق بلادي":

يا دزاير حنّي، جودي بالكرم جودي بخيرات، ترفع من شاني

والله نبغيك، محال نسلـــم حبك بين أعضا ساكن كناني

تاريخك مسموع، في كل العالم وعلامك مرفوع، عند النصراني

الوطن مشدود أبدا بمخيلة الشاعر، منقوش في سويداء قلبه، لم يستطع الفكاك من عقاله أبدا، فهو الأم الرؤوم التي يرومها التَّحْنان، ويطلبها الكرم والجود. هي"دزاير" الوطن الذي يجدّد معه العهد، ويقسم بحبه له، حبّ وقب بين أعضائه وتغلغل في أعماقه. نعم هي "دزاير" بتاريخها العظيم الذي ملأ الدنيا وشغل الأنام، تاريخ محفور في ذاكرة الشعوب المقهورة والمنعّمة على حدّ سواء. تاريخ غامرٌ بالبطولات الخالدة والأمجاد التليدة،سجّل أروع الأمثلة في الإرادة والقوة والتحدّي، لشعب أعزل سلاحا أوفر طاقة نابعة من عون الله بالنصر المؤزر. تاريخ تعلمت منه الشعوب عبر أصقاع المعمورة الدروس للعبرة والاعتبار. كتبه أبناؤها بدمائهم المسفوحة، فمثّلوا أروع صور المقاومة والنضال والتجلّد في كل أقطار العالم.

٢- الوطن/ الطبيعة:

مشاهد شعرية فائقة الجمال، وغاية في الروعة تلك التي رسمها حاج بينين في قصيدته "جزاير"، والتي تضمّ سبعًا وعشرين بيتا. قصيدة تعجّ بالصور الشعرية البديعة، صور تترى، عامرة بالحياة والحركة، حافلة بالمثيرات والأحاسيس، تعرض المَشَاهد وكأننا نراها.. نحسّها.. نتشمّمها.. تصلنا منها موجات الدفء والحرارة.[17] صورٌ رومانسية الحسّ، انسيابية وعفوية خالصة بعيدة عن التكلف، ولعلّها سمة تميّز كل نصوص الشاعر، و(هذه العفوية الغالبة على شعره هي التي تجعلنا نعايش جو القصيدة وجوهرها. فالفن الحقيقي يشبه الحياة من حيث يسرها ووضوحها رغم تركيبها).[18] يقول الشاعر[19]:

يا وردة نـابتة وسـط كبـادي يا شجـرة شـامخة بهـا نبـــدا

يا صيحـة زايـدة في تنهـــادي ذي جمرة وحاملة نـار الصهدة

يا بسمة خـارجة من فـــؤادي ويا كلمة سـاكنة فمي لبـدة

ذي دمعة نـايمة بين تمـــادي ويا جـرح نعالجك نفـده نفـده

يا قمرة ظاهرة وسـط نشادي من حسنك فـارحة ذيك الوردة

يا قسمة وارثة أصـل جـدادي يا قصـة خـالدة هذي مـــدة

ذي روضة حاضية سر ولادي والكلمة قالها شاعر وغدى
كالموجة جابها بحر الهادي في برك قاصدة شط النجدة
يا نحلة كابرة وسط ورادي من سرها صانعة عسل الشهدة
يا نخلة واقعة عند مجادي في واحة مزينة صحرى جردة
والهمة كابرة عند سيادي يا قلعة صامدة بسم الوحدة
يا سمرة زينك زين بوادي بخاسة النسا وحدة وحدة
يا عذرا شامتة في حسادي يا لبة واجدة صيد الهدة
يا حلمي داسو تحت وسادي يا يقظة درتها شاو المبدا
فيك العز همتي وقت نكادي وليك نكز غير فكي ذلقعدة
ذي عذرة والعة جات قصادي في يومها ورد عطر وندى
يا روحي وراحتي عند بلادي جزاير عشقك عندي لبدة
ذي وردة فاتحة في ميعادي يا وطني حبك درت عقدة
يا درة عشقها في لوهادي يا كلمة نابتة وسط الكبدة
يا سدة زايدة في تعنادي وبحري هيج واحرز تهدى

استهلّ الشّاعر نصّه بالنّداء، بأداة النداء "يا"، وهي في عرف اللغويين تستخدم لنداء القريب والبعيد. وقد ترددت في هذه الأبيات 22 مرة. ولعلّ استفتاح الخطاب بالنداء؛ يشي إلى أهمية ما يلقيه الشاعر إلى المخَاطَب، والمخَاطَبُ هو "الجزائر"، هو الوطن، وكل الأحياز والحنايا والأربَاض والرُبوع الماثلة أمامه رأي العين، القابعة في قلبه، الرابضة في كيانه، المُستوطِنَة روحه.

ولما كان الخطاب موجها للجزائر، فهو عالق بالفؤاد ناشب بالوجدان، وتَكراره في تضاعيف القصيدة أمارة على أهمية المعشوق وقيمته عند الشاعر المتيم الولهان، التائه في البحث عنها بين الأحياء والجمادات. فتارة يعلّل النفس بالآمال يرقبها، وتارة أخرى يتملكه اليأس في تحديد تموقعها، بين الحلم والحقيقة، بين الوجود والعدم.

لقد تمثّل الشّاعر الجزائر في كل شيء، فتاة سمراء عذراء ذات حسن بدوي، ودرّة خَرِيدَة معشوقة فاتنة، ووردة مخضلة عطرة وشجرة شامخة، وروضة حاضنة، وموجة هادرة، ونخلة سامقة، وواحة مزينة، وصحراء قاحلة، وبحرًا هائجا مائجا وهادئا معا، وبرّا منقذا مُنجيا.. هي كل الكوائن والموجودات، وهي كل ما يصدر عن الطبيعة أو يحاكيها، في تيهها وجلالها وجمالها وعطرها

وشموخها واضطرامها وسكونها ويقظتها. كل شيء في هذا الكون هي الجزائر. هي جمرة حارقة متّقدة، وبسمة عذبة، وكلمة معبّرة، ودمعة حابسة، وجرح مندمل، وقُمْرة وضّاءة، وقلعة صامدة، وحلم مخبوء في المطاوي.

لقد سلب الشاعر من نفسه كل عزيز، ليرسم لوحة فنية عن وطنه الجزائر، شعر استوحاه من حنايا الأضلع على حدّ قول محمد العيد آل خليفة. ولتكون اللّوحة نَاضِرَة نَضْراء، استعار من مظاهر الطبيعة الغناء أوصافا بديعة، شكّلت صورا شعرية بهية، وهذا في كلا القصيدتين "عشق بلادي" و"جزاير". لقد تسللت الطبيعة بعناصرها ومظاهرها إلى النصين تسللا نديّا، ولأن حاج بينين يمثل الرومانسي العاشق لوطنه، فهو لا يهرب منه إلى غيره(الطبيعة)؛ وإنما يوظف الطبيعة لإثارة الروح الوطنية في الأجيال الصاعدة.[20] ومع الشاعر الرومانسي(يتحول الوطن إلى كعبة يطوف بها الشاعر وإلى مغنى وإلى موطن حسن وإلى دار أحلام.. والوطن هنا ملكية خاصة والشاعر مالك متسلط أو عاشق هيمان).[21]

وركحا على ما سبق استشفافه، فقد تجلّى الوطن في النصين في كثير من الكائنات الحية المستلهمة من الطبيعة، ففي النص الأول: "عشق بلادي" استحضر:(الأوراس، جبال، الشجرة، الحجرة، رمال، الصحرى، شعاب، كيفان). في حين كان لها حضورا لافتا في النصّ الثاني: "جزاير":

- وردة نابتة وسط كبادي.
- شجرة شامخة.
- ذي روضة.
- كالموجة جابها بحر الهادي.
- نحلة كابرة وسط ورادي.
- نخلة واقعة عند مجادي.
- واحة مزينة صحرى جردة.
- بحري هيج واحرز تهدى.
- لَبَة واجدة صيد الهدة. (والمقصود باللبة هنا اللبؤة: أنثى الأسد).

وفضلا عن ذلك، استوحى الشاعر من قاموس الموجودات الإنسانية تراكيب لغوية،اكتنزت بدلالات ترميزية، ولاسيما في النص الثاني، فثمة ما يدلّ على البهجة والفرح(بسمة خارجة من فؤادي)، وما يدل على الحزن والألم(صيحة زايدة في تنهادي، ذي جمرة حاملة نار الصهدة، ذي دمعة نايمة بين تمادي، جرح نعالجك نفدة نفده)، ومنها ما يدلّ على الثبات والصمود والأصالة عبر

التاريخ(قسمة وارثة أرض جدادي، قصة خالدة هذي مدة، قلعة صامدة بسم الوحدة)، ومنها يرمز إلى نفاسة الوطن ورفعته وقدسيته وعلوه(روحي وراحتي عند بلادي، جزاير عشقك عندي لَبْدَى، وطني حُبّك دَرْتْ عقدة، دُرّة عشقها في لوهادي).

وكما هو جليّ، فالنصّان يعجّان بالصّور الشعرية التي تُبين عن مدى جمال الوطن وتدلّه الشاعر بمعشوقته الجزائر، أرض الأحرار والشهداء الأبرار، وهيامه بكل شبر احتضن الثّوار الأطهار، وكلّ جبل كان سدّا مانعا في وجه العدو الغدار. ولعلّ الناظر في قصيدة "جزاير" يلفيها تترع بحشدٍ هائلٍ من الصور التي يتفجّر بعضها بفعل بعضها الآخر.[22] تشكّل لوحة تستحيل في الواقع وطنا، وتكون جزيرة بلا ساحل، مثل القصيدة).[23] وكلّ صورة ناجحة - مثلما يقول سي دي لويس- هي علاقة لقاء ناجح مع الحقيقة.[24]

ومن نافلة القول، أن هذه الصور الشعرية شكلّتها التشبيهات والاستعارات التي وشّح الشاعر بها نصّه، أملاها الإحساس العارم إزاء الوطن المعبّر عن عمق تجربته الإنسانية والوجودية. وما الصّورة الشعرية إلاّ(جميع الأشكال المجازية)[25] التي تعبّر تعبيرا إيحائيا عن الأفكار والمواقف والتجارب والرؤى،وتستثير حسّ المتلقي وإعجابه. ولقد سلك شاعر الملحون هذا الطريق، حيث رافق (أخاه المدرسي في استخدام الاستعارة والتشبيه، والكناية والتورية، والجناس والطباق، وهلم جرًّا مما يعرف في البلاغة العربية بعلوم "البيان" و"المعاني" و"البديع"، وذلك كلّه يحقّق الصورة الفنية العربية الأصيلة، ويعطيه مستوى فنّيا راقيا، كما يمكّن المتلقّي من الاستمتاع، والشاعر من الوصول إلى تحقيق أدنى قدر ممكن من الفنّية، ومن توضيح فكرته التي يسعى إلى نقلها وتقديمها إلى المتلقّي مستمعا، أو قارئا).[26]

حاج بينين من شعراء الملحون الفاعلين في المشهد الثقافي الجزائري، يكتب القصة القصيرة جدا، ويدبّج المقالة، ويتذوق الشعر الفصيح، وينظم القصيدة الملحونة باقتدار. ولذلك ليس غريبا أن نلفي قصيدته" عشق بلادي" رجع صدى لنص شاعر الثورة الأكبر مفدي زكريا:[27]

جزائر، يا مطلع المعجزات ويا حجة الله في الكائنات

ويا بسمة الرب في أرضه ويا وجهه الضاحك القسمات

ويا لوحة في سجل الخُلو دِ تموج بها الصور الحالمات

ويا قصة بثّ فيها الوجود معاني السموّ بروع الحياة

وينشد معه إلياذة هذه الأرض المعطاء السخية بنوالها، العجيبة الصنع[28]:

جزائر يا بدعة الفاطـــر ويا روعة الصانع القـادر

ويا لجة يستحم الجمـــال ويسبح في موجها الكافر

ويا ومضة الحب في خاطري وإشراقة الوحي للشـاعر

ويا ثـورة حار فيها الزمـان وفي شعبها الهادئ الثـائر

ويا همة سـاد فيها الحجى فلم تك تقنع بالظاهـر

ويا مثلا لصفاء الضميـر يجل عن المثل السـائر

يرى محمد مفتاح أن المبدع مسيّر من قبل المعرفة الخلفية المختزنة في الذاكرة المتصرف فيها من قبل الخيال[29]، وهذا معناه أنه يتكئ في نسج متونه على حمولة معرفية وثقافية يعضّد بها خطاباته. ونلمح ذاك في قصيدة الشاعر بينين "عشق بلادي". حيث جنح إلى التأثر الواعي بنتاج مفدي زكريا، ونزع إلى محاورة الذاكرة الشعرية الجزائرية الفصيحة، حيث لجأ فيها إلى استقراض بعض الصور:(يا بسمة الربّ، ويا قصة بثّ فيها الوجود، ويا ومضة الحب، ويا همة ساد فيها الحجى...). على أن هذا الاستيحاء للصور الشعرية، إنما جاء لتماثل السياق الشعري بين القصيدتين. فالشاعران في مقام الإشادة بالوطن والتغني بأمجاده، وبعظمة الجزائر بلد الأحرار، التي أصبحت نبراس الشعوب في النضال والتحدّي، وقصة خالدة في ذاكرة كل حرّ أبيّ. وقد تميّزت هذه الصور الشعرية بالوضوح والإيحاء والتصوير، والتناسب والجمالية. ولعلّنا نتلمّس الصّناعة في هذه الصور، إذ لم تَرِد عشوائية محشوة، ولا متكلفة مغلقة، ناقصة الحسن وعرة المراد، وإنما نسجت عن تخيّر. وهذا ما برح يؤكده نقدة الشعر. تقول إيفا كشنر:(إن اختيار الصورة الشعرية ليس عشوائيا لأن الصورة الصادقة الأصيلة جذورها دائما ممتدة في التجربة المحسوسة المجسدة لا في التشبيهات أو المقارنات المجردة).[30] والواقع أن الشّاعر بينين اصطنع هذه الصّور الشّعرية، بما يتلاءم وتيمة الوطن الذي حباه الله جلّ وعلا بمناظر طبيعية خَلاّبة مختلفات التضاريس، أجبال رُعنٍ طامحات، وسهول واسعات، وأودية جاريات، وأبحر ساحرات، وأفلاء مكتنزات، وواحات خُضْلاَّت، ومدائن فاتنات.... جعلته يهيم بخياله فيخلع عليه كل الأوصاف البديعة، ويرسم له اللّوحات الفنية الجذابة. كذلك فعل به عشق الوطن فعلته، فألهمه رسم هذه المشاهد الرائعة روعة خالق الأكوان، جسّدتها تينك اللوحات الشعرية بعفوية وصدق فني عال، مما جعلها تقوى على نقل تجربة إنسانية وجودية، أحدثت تفاعلا وجدانيا لدى المتلقي.

الهوامش:

[1]- الشاعر بن عبد القادر تواتي، قصيدة "الحمد لله هي كلمتنا"، مخطوطة، 26 جوان 1996.

[2]- الشاعر بن عبد القادر تواتي، قصيدة "راج الغيم على سمايا"، مخطوطة، 20 أوت 1988.

[3]- محمد بن صالح، الشعراء على اليمين وعلى اليسار الشعراء، دار سراس للنشر، تونس، 1994، ص25.

[4]- نفسه، ص26.

[5]- مجلة رسالة الملحون الجزائري، ع6، س2017، مستغانم، ص33. والأبيات من قصيدة بعنوان: "ما بين جبال".

[6]- الشاعر حاج بينين، قصيدة "وقفة لحباب"، مخطوطة،

[7]- الشاعر حاج بينين، قصيدة "هوس الشعر" مخطوطة.

[8]- الشاعر حاج بينين، قصيدة "لزرق ولد الحمام" مخطوطة، جويلية 2013.

[9]- مختار حبار، شعر أبي مدين التلمساني، الرؤيا والتشكيل، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002، ص90.

[10]- اعتدال عثمان، إضاءة النص، ط1، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1988، ص6.

[11]- محمد صالح خرفي، هكذا تكلم الشعراء، حوارات شعرية نقدية، ط1، دار الأمير خالد، الجزائر، 2014، ص140.

[12]- عبد الله الركيبي، الأوراس في الشعر العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص10.

[13]- يوسف وغليسي، في ظلال النصوص، تأملات نقدية في كتابات جزائرية، ط1، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص124.

[14]- قصيدة "عشق بلادي"

[15]- آل عمران، الآية 169.

[16]- أمير مقدم متقي، الشهادة والشهيد في الشعر العربي المعاصر آفاق الحضارة الإسلامية، أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية، السنة الرابعة عشرة، العدد الأول، ربيع وصيف 1432 هـ، ص91.

[17]- حبيب مونسي، شعرية المشهد في الإبداع الأدبي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2003، ص20.

[18]- حسن فتح الباب.شعر الشباب في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص115.

[19]- قصيدة عشق بلادي.

[20]- ينظر: ياسر ذيب طاهر أبو شعيرة، المعجمُ الشّعريّ ومصادرُه في شعر عبد المنعم الرفاعي(الطبيعةُ، المرأةُ، الحربُ) ، مجلة جامعة الحسين بن طلال، مج4، ع2، س2018، الأردن، ص402.

[21]- عبد الله الغذامي، تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، ط2، المركز الثقافي العربي، بيروت/الدار البيضاء، 2005، ص63.

[22]- محمد لطفي اليوسفي، في بنية الشعر العربي المعاصر، دار سراس للنشر، تونس، 1985، ص92.

[23]- بشير القمري، مجازات، ط1، دار الآداب، لبنان، 1999، ص114.

[24]- سي دي لويس، الصورة الشعرية، تر: أحمد نصيف الجنابي وآخرون، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، 1982، ص114.

[25]- إحسان عباس، فنّ الشعر، ط1، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1996، ص200.

[26]- العربي دحو، بعض النماذج الوطنية من الشعر الشعبي الأوراسي خلال الثورة التحريرية، د.م.ج، الجزائر، 1986، ص143.

[27]- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص19.

[28]- نفسه، ص20.

[29]- محمد مفتاح، دور المعرفة الخلفية في الإبداع والتحليل، مجلة فصول، مج10 ع3 و4، يناير 1992، القاهرة، ص87.

[30]- محمّد حمّود، الحداثة في الشعر العربي المعاصر، ط1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1986، ص101.